الدور الثقافي للحجّ زمن سلاطين المماليك

٦٤٨هـ/ ٩٢٣م

د. سليمان عبد الغني مالكي

ملخّص البحث:

الحـجُّ قديـم بـين الأمـم، وهـو مـن أقـدم العبـادات التـي عرفتهـا الإنسـانية، والغـرض منـه عـلى كلّ حـال أمـر دينـيٌّ محـض، وإن كان الاجتـماع فيـه لا يخلو من الفوائـد الدنيويـة والمنافع الشـاملة التي تزيد في رقـي الأمة أدبياً ومادياً وثقافياً، وهو ركـن الإسـلام المجمع عليه منـذ أن دعا إليـه أبو الأنبيـاء إبراهيم عليه السلام، وأقـام له أول بيـت وضـع للناس على أسـاس التوحيد لله سـبحانه وتعـالى، وكانت العـرب تؤدي هـذه الشـعيرة فيما بين زمن إبراهيم وإسـماعيل عليهما السلام، ورسـالة ابنهما مـن بعدهما خاتم النبيّـين والمرسـلين صلى الله عليه وآله، وقد شـكّل الحـجّ بتاريخـه وأهميّته عـلى مرّ العصـور عنصراً عظيـماً مـن عنـاصر التاريـخ الإسـلامي. و نحدث في هـذه المقالـة عن الـدور الثقافي للحج زمـن سـلاطين المماليك.

***

ويحدثنا التاريخ أنّ حجاج بيت الله الكريم في هذه الفترة أي زمن سلاطين المماليك كانوا يعانون ألواناً من المتاعب، ويتجشمون جميع أنواع المصاعب؛ من حيث سفرهم ومجيؤهم من أقاصي الدنيا إلى البلاد المقدّسة في كلّ عام لحجّ بيت الله الحرام، وزيارة قبر سيد الأنام صلى الله عليه وآله، وهم تحت ظلال الشراع البدائية الضعيفة في البحر، وعلى ظهور الإبل الهزيلة في البرّ.[1]

ويؤكّد تلك المتاعب كثير من المؤرخين، فابن بطوطة حين وصل إلى عيذاب،[2]

---

١. أفاد البتنوني أنّ مصر كانت ملتقى المسلمين إلى حج بيت الله الكريم، فالأندلسي، والمغربي، ومسلمو البربر، فالسنغال، فبلاد التكرور، والسودان الغربي والشرقي إذا قصدوا السفر إلى الحج أخذوا طريقهم إلى مصر برّاً أو بحراً، وكذلك كان يقصدها كثير من أهل الشام، والترك، والقوقاز، وجزر البحر المتوسط، ويجتمع الكل بالقاهرة قبل شهر رمضان، ثمّ يسيرون منها إلى قوص... ثمّ... عيذاب... إلى القصير على البحر الأحمر... وكانت هذه القرية على أيدي عرب البجاه أو البجه يسكنون صحراء مصر الشرقية من سواكن الذين كانوا يتولّون نقل الحجاج على إبلهم في صحراء عيذاب، وكانت أخلاقهم على غاية من الفظاظة لاشفقة عندهم ولا رحمة، وربما بلغ بهم الأمر إلى تغيير طريق الماء على القافلة لغرض شنيع، وهو أنّ ركابها يموتون عطشاً، فيستولون على ما معهم من متاع... وكان الحجاج يقيمون في عيذاب نحو شهر من الزمان في انتظار الفلايك السفن الصغيرة التي تحملهم إلى جدّة... وهي غير محكمة الصنع، وشراعها في الغالب من الحصير، وكان أصحابها يتعسفون في معاملة الحجّاج، فيشحنون المركب بأكثر من حمولته وكثيراً ما كانت تغرق في وسط البحر بمن عليها من الحجيج الذين يذهبون ضحية مطامع أولئك الأشرار، ومن وصل إلى جدّة وصلها... بين تحكّم الملاّح، وتبرّم الرياح، وانزعاج الماء، واضطراب الهواء، ولقد حجّ من هذا الطريق في سنة ٥٧٨هـ ابن جبير الأندلسي، فقطع المسافة بين القاهرة وجدّة في نحو شهرين ونصف قضاها في أسوإ حال بين مشقّات وأهوال ممّا هو مبيّن في رحلته، وفي سنة ٧٢٥هـ سافر ابن بطوطة من مصر إلى القصير، ولكنّه لم يجد فيها مركباً يحمله إلى جدّة مع من قصدها من الحجاج؛ لأنّ السفن أحرقت في واقعة... بين الترك وعرب البجاه... محمد لبيب البتوني: الرحلة الحجازية، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة: ١٠٥ـ١٠٧.

٢. عيذاب: مدينة على ساحل البحر الأحمر، بيوتها اختصاص، أهلها البجاة كانوا يستفيدون كثيراً من الحجاج والتجار، فكانوا يكرون للحجاج جلابهم مراكبهم ... وكثيراً ما كانت تغرق بالحجاج؛

وهـو في طريـق حجّـه سـنة ٧٢٥هـ وحـد الحـدّ ربي سـلطان البُجـاه في معـارك حامية مع الأتـراك وقـد خـرق المراكـب، لهذا قـال ابن بطوطـة: «فتعـذر سـفرنا في البحـر، فبعنا ما كنّـا أعددنـاه من الـزاد، وعدنا مع العـرب الذين اكترينـا الجمال منهـم إلى صعيد مصر».[١]

والمصاعـب التـي عانـى منهـا الحجـاج في طريقهـم إلى بيـت الله الحـرام، أو الأماكـن المقدسـة في تلـك الفـترة كثـيرة ومتباينـة ما بـين طبيعة لا ترحـم من عطش وحـرّ وجدب إلى هجـمات الأعـراب والتجار عليهم في طرقهم بـرّاً وبحراً، فضلاً عـن متاعبهم المحدقة بهـم مـن حـكّام الحجـاز وخاصّةً مكـة وغيرها مما لا يتسـع ذكـره في عجالة هـذا البحث، ومـع كلّ هـذه الأخطـار التـي أنزلها الزمـان والإنسـان على الحُجّـاج لم يتوقف الحـجّ، ولم يمنعهـم عنـه مانـع مهما عظـم شـأنه، ولذلـك لم يُسـمع أنّ الحجـاج انقطعوا في سـنة من السـنين عنـه، لأنّهـم كانوا يفـدون من شـتى بقاع العـالم الإسـلامي، غير مبالين في سـبيل تحقيـق مقصدهـم إلى بيـت الله الكريـم، ومـا إن تهـل الكعبـة أمـام أبصارهـم لأول وهلة حتـى ينسـى المسـلم منهم جوعه، وينسـى عريه، وينسـى ظمـأه، وكلّ أحبابـه فيهتف مع عـشرات ألـوف الحناجر الهاتفـة: (لبّيـك اللهمّ لبّيـك، لبّيـك لاشريك لك لبّيـك...).

فـما أصغـر الدنيـا! ومـا أسرع ما تطـوى بـما فيها مـن متاعب وعقبـات! فيبقـى هناك أمـر واحد، وشـخص واحد فقط، إنسـان في ثوب أبيـض وبقلب أبيـض... يطوف حول البيت الـذي جعلـه الله مثابةً للنـاس وأمناً.[٢]

لأنّهـا كانـت غـير دقيقة فضـلاً عن كونهـا من خوص شـجر الـدوم وهي دانيـة في عمومهـا، وفضلاً عـن ذلـك كانـوا يحمّلونهـا أكثـر مـن طاقتهـا حرصاً عـلى المال غـير مبالـين بالحجـاج، بـل يقولون: «رد علينـا بالألـواح وعـلى الحجّـاج بـالأرواح»؛ ابـن بطوطة رحلتـه المسـمّاة «تحفة النظـار في غرائب الأمصـار وعجائـب الأسـفار»، شرحه وكتب هوامشـه، طلال حـرب، دار الكتـب العلمية، بيروت لبنـان، ط ٢، ١٤١٣هـ، :٧١، إبراهيـم رفعت: مرآة الحرمـين٢: ٣٠٧.

١. ابن بطولة، المصدر السابق: ٧١ ٧٢.

٢. عـلي بن حسـين السـليمان، العلاقات الحجازيـة المصرية، رسـالة ماجسـتير في الأداب، جامعة القاهرة مطبوعة، ١٣٩٣هـ/ ١٩٧٣م :٧٦.

وذكـر بعـض المؤرّخـين في هـذا الصـدد قائـلاً: ومـن الغريـب أنّ كلّ مـن يعثر بصره لأول وهلـة عـلى الكعبـة تـراه في دهشـة كبـيرة، لا لكـون بـصره وقـع عـلى شيء لم يتعود النظـر إليـه، ولكن لما يعتريه من الخشـية والرهبة!! فـترى هؤلاء المشـاهدين تأخذهم هزة كبـيرة مـن هذا المنظر المهيـب، ومنهم من يقف لحظـة في مكان المتأدب المسـتكين المتصاغر أمـام هـذه العظمـة الكـبرى، ومنهم من يـصرخ بصوت الخوف، ولسـانه يلهـث بكلمات منفصلـة عـن بعضهـا، ومنهم مـن يجهش بالبـكاء، فلا تسـمع له غـير نحيـب يختنق معه صوتـه، وتنقطع معه أنفاسـه...[1]

هـذه لمحـة خاطفة مـن معاناة الحجّـاج في طريـق ركبهم، والتـي حدثت أكثـر في بلاد الحجـاز على مـدار هذه الفـترة سياسـياً، وحيث تطلّب موضـوع البحث الإيجاز يسـتطيع القـارئ أن يتلمّسـها وغيرهـا من المصـادر، لاسـيما كتب الحوليـات التي تحكـي حوادث السـنين، لكنّنـي أشرت إليهـا هنـا في عجالـة؛ لأنّ الدور الثقـافي للحج خلال هـذه الفترة لابـدّ أن يتأثـر سـلباً أو إيجابـاً بالعوامـل السياسـية والاجتماعيـة والاقتصاديـة هـذا مـن ناحيـة، ورأيـت أيضـاً أنّـه لا يمكن أن تكـون الناحيـة الثقافيـة زمن المتاعـب والمصاعب والفتـن والحـروب بمسـتوى حالتهـا في الزمـن الذي يسـود الأمن البـلاد والعبـاد ويعمّ الجميـع الطمأنينـة وازدهـار المعيشـة، لكـن مـع كلّ مـا حـدث فلـم ولـن تتوقـف عجلة المسـيرة العلميـة، ولابـدّ أن تسـير قدمـاً إلى الأمـام؛ لأنّ العلم ديـن، والله تعـالى قد تكفل بحفظـه في قولـه: ﴿إنّـا نحـن نزّ ـا الذّكْـر وإنّـا له لحافظونَ﴾.[2]

الحج منتدى العبادات وملتقى الثقافات :

الحـجّ هـو ركـن الإسـلام الخامـس لمـن اسـتطاع إليـه سـبيلاً، وفريضتـه مؤكّـدة من خـلال آيات الله وسـنة رسـول الله ﷺ شريطة الاسـتطاعة البدنية والمالية، فمـن لم يجد زاد

١. البتنوني، الرحلة الحجازية : ١٧٩.

٢. سورة الحجر : ٨.

أهلـه ونفقـة حجّه فلا حجّ عليـه؛ وفضلاً عن المشـقات البدنية في أداء هذه الشـعيرة، فهو أيضـاً صـوم عن النسـاء والفسـوق والجـدال، والصـلاة بعد الطـواف ... وفريضـة الحجّ كأيّ فريضـة ـ لهـا أثرهـا البـيّن في إصـلاح القلـوب، وتزكيـة النفـوس وتقويـة الصلة بين العبـاد وربّهـم الأعلى من جهـة، وتقوية الأواصر الأخوية بين المسـلمين مـن جهة أخرى، ولا فـرق في ذلـك بين كبيرهم وصغيرهم وغنيهـم أو فقيرهم ولغتهـم أو ألوانهم، ومنافع الحـجّ كانـت كثـيرة حقّقت مـا تقفوا إليـه نفس المؤمـن في دنيـاه، وكانت مهوى فـؤاده في أخـراه، ومـا ذكرت ونكّـرت وجمعت منافع في قوله تعالى: ﴿لِيَشْـهَدُوا مَنَافِـعَ لهَم﴾.[1] إلاّ لعمومهـا التـي وسـعت كلّ منفعة تخـصّ جموع المسـلمين، والتـي لا تخرج بطبيعـة الحال عـن كونهـا منافع سياسـية، أو اجتماعيـة أو اقتصاديـة أو ثقافية، وثمار هذه المنافع بلا شـك كانـت مـن وراء حكمـة مشروعيـة الحجّ الـذي كان بأيامـه المعـدودة، وأمكنتـه المحدودة بمثابـة منتدى عامٍّ ضمّ المسـلمين من شـتّى بلادهم وعـلى اختلافهم، ليتدارسـوا أحوالهم عـلى مـودة ووفـاق، نابذيـن الفرقـة والشـقاق وكلّ السـلبيات التـي تحـول بينهـم وبـين متطلبـات دينهـم، ومدارسـتهم لأحوالهـم كانـت مثمـرة وبنـاءة؛ لأنّـه قـد أظلهـم جميعاً موسـم عظيـم ذابت فيـه الفـوارق، وهم عـلى لباس واحـد تلبيةً للنـداء الخالـد في صعيد واحـد، في وقـت واحـد، وجمـع واحـد، ودعاء وهتـاف واحـد هو: «لبّيـك اللهـمّ لبّيك، لبّيـك لا شريـك لك لبّيـك، إنّ الحمـد والنعمة لك والملـك، لا شريك لك لبّيـك». دعاء لتلبيـة دعـوة التوحيد في مـكان هيّـأه الله لإبراهيم عليه السلام وحدد لـه معالمه، ونهـاه عن الشرك المنـافي لتوحيـد ألوهيته تعـالى، ثمّ أمره تعـالى بتطهيره من سـائر النجاسـات حتى يتخطّى الطائفـون بـه، والعاكفون فيه، والركّع السـجود شـطره بإخلاص الدين كلّـه لله وحده لا شريـك لـه، ومـع هذا اللقـاء الروحاني الذي يشـبه لقـاء الله تعـالى حيث يحـشر الناس إلى

١. قـال تعـالى: ﴿وأذّن فى النـاس بالحـج ياتـوكَ رجـالاً وعلى كلّ ضامـر يأتـ من كلّ فـجّ عميق * ليشـهدوا منافـع لهـمْ ويذكـروا اسـم الله فى أيـام معلومـات على ما رزقهـم من بهيمـة الأنعام فكلـوا منهـا وأطعموا ا ائس الفقير﴾. سـورة الحـج: ٢٧ - ٢٨.

ربّهم حفاة عراة لم ينس روّاد الحجّ معارفهم، بل منهم من كان يريد الحجّ وينشَطُ إليه رغبةً في طلب العلم على يد عالم مشهور، انتشر صيته في كلّ مكان، وجرى ذكره على كلّ لسان، وسُمع بقدومه الحجّ في سنة من السنين. وهذه الرغبة كانت متوفرة من القديم وعبر السنين في مواسم الحجّ، ولا سيما عند طلاب العلم النجباء الذين تعودوا الأسفار حباً في الاستماع إليهم، وتحصيل معارفهم على أيديهم، وهؤلاء كانوا كثرة قدروا العلم في أهله حقّ قدره، فأحبّوه وأحبّوا طلبه من مشاهيره النابغين في شتّى علومهم تدريساً وتحديثاً،[1] وتصنيفاً.

وليس أدل على حرص روّاد العلم من أنّ بعضهم إذا فقد كتاباً ولم يستطع الوصول إليه، أو الحصول عليه نادى يوم الحجّ عليه فيخبره من علم به.[2]

ومنافع الحجّ كثيرة ومشهورة، وحديثي عن بعضها فيه إشارة إلى ما سنتحدث عنه في هذه العجالة، وهي دور الحجّ الثقافي في زمن المماليك من خلال العلماء الذين التقوا في أمكنة مشاعره المشهورة، وأزمنة شهوره المعلومة، وهذا الالتقاء كان فرصة في جمع تزامن في مكان قد لا يتوفر لبعضهم الاجتماع ببعض في غيره،[3] وفضلاً عن اجتماعهم

---

١. كان من هؤلاء قديماً سفيان بن عينية الإمام الحجة، قال عنه الشافعي: لولا مالك وسفيان لذهب علم أهل الحجاز. ومن ألقابه: محدّث الحرم، وشيخ الإسلام، وأحد الأئمة، قال عنه الذهبي: كان خلق يحجون والباعث لهم لقي ابن عيينة، فيزدحمون عليه أيام الحج. الذهبي، تذكرة الحفاظ: ٢٦٢ وما بعدها برقم ٢٤٩؛ العقد الثمين، ٤ : ٥٩١ برقم ١٣١١ ؛ وكان منهم أيضاً محدّث المدينة وعالمها نزيل مكة يعقوب بن حميد بن كاسب. الذهبي، تذكرة الحفاظ، ٢ : ٤٦٦ برقم ٤٧٧ ؛ ومنهم أيضاً محدّث الجزيرة أحمد ابن عبدالملك بن واقد، نفس المصدر : ٤٦٣ برقم ٤٧٤؛ وهؤلاء مع أنّهم قبل هذه الفترة إلاّ أنّ هذه الروح هي السائدة في هذه الفترة وما بعدها من حيث رغبة روّاد العلم في تحصيل معارفهم على مشاهير علمائهم أيام مواسم الحجّ.

٢. بلاد الحجاز : ٢١٩ .

٣. ما سقناه مستفاد من تراجم علماء تلك الفترة. راجع الفاسي، العقد الثمين ١ : ٣٥٦ ؛ الجزري، غاية النهاية في طبقات القرّاء ١، عنى بنشره، براجستر أسر، بيروت، دار الكتب العلمية، ط ٢،

على رباط الدين الذي وحّدهم وجمع شملهم، وعلمهم نبذ الفرقة، وإحلال المودة والرحمة بين صفوفهم، فقد تبادل كلّ منهم مع الآخر شتّى معارفه من علوم أو فنون، وإخلاصهم في تبادلهم لمعارفهم قد حوّل من أوساطهم المستفيد إلى مفيد، والعلوم المتداولة آنذاك كانت العلوم الدينية والعلوم العربية المساعدة في بيان معناها، أمّا ما عداها من علوم عقلية فقد كانت نادرة في دراستها وقلّ المشتغلون بها في مواسم الحج وغيره، وقليلاً ما يذكر المؤرخون أنّ عالماً درس الشعر، أو المنطق والفلسفة بخلاف ما عداها من علوم اشتهرت، وأُلِف المؤرخون تكرارها في كلّ ترجمة لعالم.[1]

وممّا يجب أن نلفت النظر إليه أنّ مدارسة هذه المواد، سواء أكانت بالحرمين، أم أمكنة المشاعر، أم الأربطة، والمدارس المجاورة للحرمين، كانت في حلقات علمية حامية ومناظرات حادّة كانت تدور بين علماء أفذاذ يشهد لهم في عصرهم أقرانهم بالعلم والمعرفة، وإنّهم مسجلون في مصنّفات بعضهم، وهؤلاء كانوا يبحثون في هذه الأمور، أو تلك المسائل التي تخصّ العقيدة، وكثيراً ما كان يدور حولها الجدل، وعلى الرغم حِدَّة النقاش وطوله وشدة احتدامة إلاّ أنّهم كانوا يخرجون منه على وفاق لا شقاق، اعتصاماً بحبل الله المتين وسنّة نبيّه الكريم صلوات الله وسلامه عليه.[2]

وكان تفاعل العلماء في حلقاتهم العلمية خلال مواسم الحجّ مستمراً وليس بجديد على هذه الفترة، بل كان قديماً منذ أن كان النبيُّ ﷺ فيها معلّماً. وذكر في هذا الصدد ابن جبير في رحلته قائلاً: وكان لهذا القاضي جمال الدين،[3] وعموماً فقد كانت لهذا

١٤٠٠هـ، : ٥٩٧، وقد ذكر فيهما عمر بن محمد بن عليٍّ السراج الدمنهوري (ت٥٩٧هـ)، ونشاطه كان ملحوظاً في قراءته القرآن بالحرمين، وأفاد الطلبة وكثيراً من روّاد العلم، وعلماء آخرين في الفترة نفسها، العقد الثمين ٣ : ٢٠٩ ؛ السخاوي، الضوء اللامع ١ : ٣٥ .

١. ابن خلدون، المقدمة: ٤٨٤ ٤٨٨ ؛ شذرات الذهب ٥ : ٣٤٣ ؛ العلاقات الحجازية: ٢٢٣ ٢٢٤ .

٢. ابن خلدون، المقدمة : ٤٩٧ ٤٩٨ .

٣. لم يستدل على معرفته في المصادر المتداولة .

القـاضي مواعظه الأكثر شـمولاً، فضلاً عـن دقّته في فتواه، وحكمته في اسـتنباط الأحكام الشرعيـة و درء الخـلاف الـذي قد يقع بـين جموع الحجيـج، ويضيع عليهـم حجّهم، وقد قـام هـذا القاضي في فتواه بـما أرضى الجميع. ونلاحظ هـذا الموقف من خلال مـا رواه ابن جبـير عـن هـذا القـاضي في قوله: يـا للعجب! لـو أنّ أحدهم يشـهد برؤية الشـمس تحت ظـلال الغيـم الكثيف النسـج لما قبلتـه، فكيف برؤية هـلال هو ابن تسـع وعشرين؟! وقد أفـاض ابـن جبـير أكثـر في توضيـح عظاته ومـا نصت عليـه الشريعـة من خلال مـا ذكره أئمـة المسـلمين، وقـد أحـاط ذلـك بزواجره لمـن شـهدوا شـهادات باطلة في رؤيـة هلال ذي الحجّـة، وأفـاد أنّ هـدف من شـهدوا هذه الشـهادة هـو حرصهم على أن تكـون وقفة عرفـات يـوم الجمعـة، وبعـد أن ردَّهـم وجـرَّح شـهاداتهم، وفضح مـا ذهبوا إليه حسـم الخـلاف مـن خـلال مـا أخـبر به ابـن جبـير حـين قـال: الصعـود إلى عرفـة صبيحـة يوم الجمعـة، فيقفـون عشـية بهـا، ثـمّ يقفون صبيحـة يوم السـبت بعـده، ويبقون ليلـة الأحد بمزدلفـة، فـإن كانـت الوقفة يوم الجمعـة، فما عليهم في تأخـير المبيت بمزدلفـة بأس، فهو جائـز عنـد أئمة المسـلمين، وإن كان يوم السـبت فبها ونعمـت، أمّا أن يقـع القطع بها يوم الجمعـة فتغريـر بالمسـلمين، وإفسـاد لمناسـكهم؛ لأنّ الوقفة يـوم التروية عنـد الأئمة غير جائـزة، كـما أنّهـا عندهـم جائزة يـوم النحر، فشـكر جميـع من حـضر للقاضي هـذا المترع مـن التحقيـق، ودعوا لـه... وانصرفوا عن سـلام.[1]

ومن ذاع صيته شـهرة في مواسـم الحج: بشـير بن حامد التبريزي البغدادي الشـافعي، ومـن خـلال ألقابه العلميـة نعلم مـدى فاعليته في مواسـم الحجّ تعليـماً وتعلّماً، وتدريسـاً وتحديثـاً وتصنيفـاً، وإفتـاءً. لُقّـب بشـيخ الحرمـين، وشـغل منصـب الفتـوى فيهـما. مـن مصنفاتـه: الغنيـان في تفسـير القـرآن، ومناقبـه جمـة، قـال عنه السـاعي:[2] سـافر في طلب

١. ابن جبير، رحلته، طبعة بيروت، ١٣٩٩هـ: ١٤٦ ١٤٧ .

٢. السـاعي هـو: تـاج الديـن عـلي بـن أنجب بـن عثمان بن عبـد الله البغـدادي السـلامي، خـازن مكتبة المسـتنصر العبـاسي، (ت٦٧٤)، فـاق أقرانـه حفظـاً، تصانيفه كثيرة منها: مشـيخة بالسـماع والإجازة

العلـم، وسـماع الحديث، وصدع بالدعوة في موسـم الحـجّ، فأكرم القصّاد، وأنهـل الورّاد، وجـاد وزاد، وأبـدأ وأعـاد، وتخـرج بـه الفضلاء، وسـمعوا منه.[1]

وهـؤلاء وغيرهم قد برعوا في سـائر العلـوم الدينية والعربية وبرعـوا في فنونها، وكثيراً مـا فضلـوا حشـوها في مصنف واحد، وسـوف نبسـط نـماذج لبعضهـم لنرى كيـف تألق الحـجّ لهم ثقافـة وازدهاراً.

الدور الثقافي على طريق ركب الحاج :

لقـد ازدهـرت الحركـة الثقافية على طريـق ركب الحـاج ومنازلـه، وازدادت معارفها مـن خـلال مشـاعل نورها مـن العلـماء والخطبـاء والوعـاظ الذيـن تفاعلـوا بمعارفهم وشـتّى فنونهـم على طـرق الحجاج ومحطـات نزولهـم، وأعداد من سـاهموا عـلى دروب الحجـاج بمعارفهـم مفيديـن ومسـتفيدين كثـيرة لا تتسـع لضخامـة أنشـطتهم هـذه الصفحـات الوجيـزة، لهـذا اخـترت مـن كتـب حـوادث السـنين بعضـاً منهـم مكتفيـاً بإشـارة خاطفـة إلى بعـض أنشـطتهم، ويطالعنا في هـذا المقـام القاضي بـدر الدين محمد بـن إبراهيـم بـن سـعد الله بـن جماعـة الكنـاني الذي حـجّ عـن طريـق البحر مـع والده لعـدم تيـسّر الحـجّ في الـبرّ في عـام ٦٥٦هـ، وذكر ابـن فهد وغـيره ذلك بـل زاد في ذلك قائـلاً: وحضر وفاة الشـيخ أبي الحسـن الشـاذلي،[2] بحميترا من صحراء عيـذاب، وصلّى

في عـشرة مجلّـدات، كان قارئـاً بالسـبع مؤرخاً، لـه مصنفاته في التفسـير والحديث والفقـه، وله تاريخ اسـمه الجامـع المختـصر في عنـوان التواريخ وعيـون السـير، ويقع في سـتة وعشرين مجلـداً، ولم يصل منـه سـوى المجلـد التاسـع الذي أرخ فيه من سـنة ٥٩٥هـ إلى سـنة ٦٠٦ هـ، قام بنـشره د. مصطفى جواد١٣٥٣هـ. انظر الفـاسي، العقد الثمـين ٣ : ٣٧١ ٣٤٣ ٣٤٤ .

١ . العقد الثمين ٣ : ٣٧١ ٣٧٥ برقم٨٥٠ ؛ السخاوي، التحفة اللطيفة ١ :٢١٥ ٢ .

٢ . هـو أبو الحسـن علي بن عبـد الله بن عبد الجبار بن يوسـف الشـاذلي (ت٦٥٦هـ)، المقريزي، السـلوك ح١، ق٢، :٤١٤ ؛ ابـن تغـرى بـردي، النجـوم الزاهـرة ٩ : ٦٨ ٦٩ ؛ شـذرات الذهـب ٥ : ٢٧٨ ؛ إتحاف الـورى ٣ : ٨٠ .

عليه البدر بن جماعة.[1]

وقد تكرّرت حجات القاضي بدر الدين بن جماعه كثيراً،[2] ففي سنة٦٦١هـ حجّ أيضاً مع والده عن طريق البحر،[3] وحجته الثالثة كانت، في صحبة الركب من دمشق سنة ٦٨٣هـ، وبعدها كانت حَجّته مع ابنه عزّ الدين،[4] مع ركب الحجاج من القاهرة سنة٧١٠هـ، وفي سنة٧٣٤هـ قدم ابن جماعة مكة مع أهله مجاوراً بها، ومصنفاته وضخامة أنشطته العلمية، واشتغاله بعلم الحديث أفادت خلقاً كثيراً من الوافدين وأهالي مكة، والمدينة، ومصر وغيرها، وعلى نسقه كان ابنه عزّ الدين أيضاً في سيرته الحسنة، أثناء قضائه الذي لم يخشَ فيه سلطاناً، أفاد الفاسي بولايته للقضاء في حياة شيوخه في ٨ من جمادى الآخرة سنة٧٨٨هـ، واستمر حتى عُزل بآخر، ثمّ أعيد، ثمّ أعرض عن ذلك؛ يقول الفاسي: ثم أنقلوا عليه بالعَود، بحيث أن يبلغا،[5] مدير الدولة بالقاهرة حضر منزلة وبالغ في سؤاله بالعَود، فأبى وصمّم على المنع، فسئل في تعيين قاض عوضاً عنه، فقال: لا أتقلد. مسموعاته كثيرة على مشاهير العلماء وحفاظهم من مصر ونابلس ودمشق، ومكة، والمدينة، وشيوخه بالسماع والإجازة يزيدون على ألف وثلاثمائة شيخ أفتى ودرس، وصنّف، وأثرى الحياة الثقافية بين أوساط الحجيج على دروبهم، وأمكنة مشاعرهم، وله وقع في النفوس. معظّماً عند الخاصة والعامة بحيث بلغ من أمره أنّ السلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون أغدق الولايات في الممالك

---

١. ترجمته في ابن كثير، النهاية ١٤ :١٦٣ ؛ النجوم الزاهرة ٩ : ٢٩٨ .

٢. هو قاضي القضاة بدر الدين محمد بن إبراهيم بن سعد الله بن جماعة الحموي الشافعي (ت٧٣٣هـ)، والصفدي: الوافي بالوفيات ٥ : ١٨ برقم ٢٦٨ .

٣. من خلال ترجمته ذكر ابن حجر في الدرر الكامنة ٣ : ٣٦١ برقم ٣٢٦٦ أنّه حجّ مراراً .

٤. هو عبد العزيز بن محمد بن إبراهيم بن جماعة قاضي قضاة الديار المصرية، وفاته بمكة سنة٧٦٧هـ ودفن بالمعلاة بجوار الفضيل بن عياض. العقد الثمين ٥ : ٤٥٧ ٤٥٨ برقم ١٨٣٢ ؛ وذكره ابن العماد بأنّه كان كثير الحجّ والمجاورة .

٥. ذكر في شذرات الذهب ٦ : ٢٠٩ .

بمـن يُعَيِّنُـهُ وهـو مـع ذلـك مُطَّـرح الجانـب.[1] وتشـير كتـب الحوليـات إلى حـجّ الخليفة المعتضـد بـالله أبي بكر سـنة ٧٥٤هـ، وقد اصطحب كثـيراً من العلماء منهم قـاضي القضاة عـزّ الديـن بن جماعـة السـابق الذكر، والشـيخ شـهاب الدين بـن عقيل وغيرهمـا، إضافة إلى جمـع كبـير مـن الأمراء، وهـؤلاء أيضاً كانت عليهم مـدار الفتوى في أوسـاط الحجيج، وقـد وسـعت معارفهم الخليفـة والمخلـوف وعظاً، وتوجيهـاً، وإفتـاءً، وتحديثاً وتدريسـاً عـلى طرق سـيرهم وأمكنة مشـاعرهم.[2]

وقـد رافـق الإمـام النـووي الحجاج عـلى طريقهـم سـنة ٦٥١هـ، ومعه والـده، وقد شـارك كغـيره في بـثّ معارفـه وعظـاً وتحديثـاً وإفتـاءً بـين جمـوع الحجيـج. وقـال عنـه ابـن كثـير: كبـير فقهاء زمانـه، حـجّ .. وكان يأمـر بالمعروف وينهـى عن المنكـر للملوك وغيرهـم. تـوفي ليلـة أربـع وعشرين من رجب سـنة سـتمائة وسـبع وسـتين.[3] وقد حجّ السـلطان الملـك الظاهر بيـبرس واصطحب معـه عدداً مـن العلماء والأمـراء، وكان من العلـماء قـاضي القضـاة صـدر الديـن سـليمان، وفخر الديـن بن لقـمان، وتـاج الدين بن الأثـير وغيرهم... وهـؤلاء كانوا قـدوةً للحجّاج على طرقهم إرشـاداً وتوجيهـاً وإفتاءً.

يقـول ابـن فهـد:... والسـلطان طـول طريقـه يسـتفتي قـاضي القضـاة صـدر الديـن وينفعـه،[4] في أمـر دينـه. وقـد حـجّ الملـك النـاصر محمـد بـن قـلاوون في سـنة ٧١٩هـ

١. الفاسي، المصدر نفسه ٥ : ٤٥٨ .

٢. المقريزي، السلوك ٢ : ٩٠٣، ق٣ ؛ ابن فهد، إتحاف الورى ٢ :٢٩١ .

٣. ابـن كثـير، البدايـة والنهايـة ١٣ : ٢٧٨ ؛ ابـن تغـرى بـردي، النجـوم الزاهـرة ٩ : ٢٧٨ ؛ ابـن فهـد، إتحـاف الـورى ٣ : ٧٤ ، وذكـر ابـن كثـير في مصدره هذا بأنه يحيى بن شرف بن حسـن بن حسـين بن جمعـة بـن حـزام الحازمي العالم محـي الدين أبـو زكريا النووي، ثمّ الدمشـقي الشـافعي العلامة شـيخ المذهـب وكبـير الفقهـاء في زمانه. من مصنفاتـه شرح مسـلم، الروضة، المنهـاج، الريـاض، الأذكار، التبيـان، تهذيب الأسـماء واللغـات، طبقات الفقهـاء، وغيرها .

٤. البداية والنهاية١٣ : ٢٥٤ـ٢٥٥ ؛ شـفاء الغرام ٢ : ٢٤٠ ؛ السـلوك ١ :٥٨٠ ٥٨٢ ؛ إتحاف الورى٣: ٩٤ ٩٨ حوادث سنة٦٦٧هـ .

واصطحب معه المؤيد صاحب حماه،[1] وعدداً كبيراً من الأمراء وجماعة من أهله وأعيان دولته، وأشهر العلماء منهم قاضي القضاة بدر الدين بن جماعة وابنه عزّ الدين اللذان سبق الحديث عنهما، ولم يمل هؤلاء عن بثّ علومهم وعظاً ونصحاً وإرشاداً وانعكست معارفهم على الحجّ ثقافةً وازدهاراً. وعن هذا السلطان قال ابن فهد: وحسن له بدر الدين بن جماعة أن يطوف راكباً كما فعل النبيّ صلى الله عليه وآله، فقال له: ومن أنا حتى أتشبه بالنبيّ صلى الله عليه وآله...[2]

وقد أفاد ابن فهد أنّه في عام٨٢٨هـ قدم الشيخ نجم الدين الواسطي مفتي العراق صحبة الركب الشامي، وكان كغيره من علماء الركب، كشمس الدين البرماوي،[3] لا يملون عن التذكير بمناسك الحجّ، وأركانه، وأهمّ واجباته، ومحظوراته، وظلّوا على ذلك في مكة، ثمّ بعد الحجّ كان مجاوراً في رحابها.[4]

هذا ولم يخل ركب الحجّاج من العلماء في سنة من السنين في هذه الفترة أو غيرها، قلة كانوا أو كثرة، ولا أدل على ذلك من كثرة الفقهاء الذين خرجوا من غيانه،[5] وانضمّوا إلى نظرائهم من سائر الحجّاج، واصطحبهم في موسم حجّهم أبو العتيق أبو بكر بن الشيخ يحيى الغياني، وكانوا ثلاثمائة فقيه،[6] يسايرونه بين أوساط الحجيج في

---

١. هو الملك المؤيد عماد الدين أبو الفدا إسماعيل بن الأفضل بن المظفر محمود بن المنصور محمد بن عمر بن شاهنشاه بن أيوب(ت٧٣٢هـ في الثامن عشر من المحرم)، وقد وصف بالفضل والبراعة في عدة علوم، وله كتاب المختصر في أخبار البشر، وهو من كتب التاريخ المعتبرة، (ابن تغرى بردي، النجوم الزاهرة ٩ : ٢٩٢٢٩٣).

٢. السلوك ١ : ١٩٧ ق١ ؛ النجوم الزاهرة٩ : ٥٨ ؛ إتحاف الورى٣: ١٦٤ـ١٦٥ .

٣. هو محمد بن عبد الدايم بن موسى بن عبد الدايم البرماوي (ت٨٣١هـ) ؛ الضوء اللامع ٧ : ٢٨٠ برقم ٢٧٥ .

٤. إتحاف الورى٣ :٦٢٥ .

٥. غيانه: حصن بالأندلس من أعمال شنتريه، وينسب إليها هذا الشيخ، معجم البلدان ٤ : ٢٢١ .

٦. إتحاف الورى ٢ : ٥٥٢ .

ذهابهم وإيابهم، وعلى محطات طرقهم وأمكنة مشاعرهم فكانوا مشاعل نور وهداية، وفضلاً عمن ذكرنا كان هناك العلماء الأدباء كُتّاب الرحلات الذين طوفوا ببلاد المشرق والمغرب رغبة في التعرّف على البلاد والعباد، وأقاموا بمصر فترة طويلة حتى ذهابهم مع ركب الحاجّ وعودة بعضهم معه، كابن جبير في حجّ عام٥٧٩هـ عن طريق عيذاب، وابن رشيد الذي حجّ عن طريق الركب الشامي بعد زيارته لمصر سنة ٦٨٤هـ، وعاد عن طريق الساحل ماراً بالعقبة في العام الذي يعدّه كما هو مبيّن في رحلته.[١]

وعلى نهج من سبق كان أبو القاسم بن يوسف التجيبي الذي حجّ من مصر عن طريق عيذاب سنة٦٩٦هـ، وابن بطوطة الذي قصد الحجّ من بلده ومرّ على مصر سنة٧٢٥هـ، وأراد الحجّ عن طريق البحر، ولم يتيسر له فعاد إلى القاهرة ومنها إلى الركب الشامي.[٢]

وهؤلاء تجلّت أنشطتهم أكثر من غيرهم، فسجلوا مرائيهم عن معالم حضارة المدن، أو البلاد التي مرّوا بها، فكتبوا عن العمران، وتقصوا أحوال كلّ بلد، وعاداته، وأحواله، وتناولت أقلامهم الصغير والكبير، والأمير والوزير، واتصلوا بالسلاطين والأمراء، ولم يتركوا شا ة أو واردة إلّا سجّلوها ضمن مؤلفاتهم المسمّاة بأسمائهم، وهي التي أصبحت تراثاً إسلامياً مجيداً شاهداً على ضخامة أعمالهم، ولا شكّ أنّهم مع غيرهم ـ خلال هذه الفترة ـ قد أفادوا خلقاً كثيراً واستفادوا أيضاً من ثقافة هذه الدروب، ورغم قسوتها وامتدادها، وغلظة وجفوة الأعراب المحيطين بها، وعلى

١. حمد الجاسر، أشهر رحلات الحج : ١٩، مجلة العرب، العدد الأول، السنة الرابعة، رجب ١٣٨٩هـ، : ٩٠، وفيها ما يتعلق بمكة من رحلته المسماة (ملء العيبة فيما جمع بطول الغيبة في الوجهتين الكريمتين إلى مكة وطيبة) .

٢. راجع رحلته دار التراث، بيروت، ١٣٨٨هـ، : ٤٩ ـ ٥٠، وفيها سبب رجوعه وتحوله إلى طريق الركب الشامي .

منازلها، إلّا أنّها كانت كجامعة طرق أبوابها العلماء والطلاب والتقوا في رحابها، فساهمت في تعميق ثقافة هؤلاء وأولئك وتراثهم الخالد أمامنا، نستمد منه المادة العلمية التي نبني عليها مختلف دراستنا دينية أو أدبية أو تاريخية، أو جغرافية، خير شاهد على صدق نفعهم، وجليل قدرهم في هذا الصدد، وإلى أن يرث الله الأرض ومن عليها.

ازدهار الثقافة أيام الحجّ :

تزدهر الثقافة في موسم حجّ كلّ عام من خلال مشاهير روّادها من العلماء الأجلاء وطلاب العلم النجباء الذين قدروا العلم حق قدره، فأحبّوه وأحبّوا سماعه على أئمتهم المشهورين بنبوغهم، وعلوّ قدرهم، وسعة علومهم، وكثرة معارفهم. وهؤلاء كانوا مشهورين، وشهرتهم مدركة من خلال إشارات المؤرخين عنهم كقولهم: تردد حاجّاً إلى مكة مرات،[1] أو: حجّ وجاور بمكة سنين طويلة،[2] أو ذيوع صيته في كلّ البلاد لكثرة حجّه ونشر معارفه على سامعيه بأسلوب ميسر شامل خال من التعقيد، فيه إثارة لانتباههم، باعث على الرغبة في طلبهم العلم عليه، أو غيره، وكانوا هداة مهتدين في إثراء الثقافة أيام الحجّ، وألسنة ناطقة من فوق منابرها يبثّون معارفها، ويذيعون أخبارها لا في مواسم الحجّ فحسب، ولكن على مدار العام وفي كلّ مكان. ومن أبرز ما يميزهم كثرة أنشطتهم العلمية مسموعة، أو مقروءة، أو مكتوبة ولذلك كانت حلقاتهم العلمية مزدحمة أكثر بروّادها أيام الحجّ، أضف إلى ذلك أنّ ذكرهم كان عالقاً بأذهان روّادهم النابهين، وفضلاً عن ذلك كثرة مصنفاتهم التي شملت، أو ضمّ كلّ منها في جنباته أكثر من تخصص، أو فن، وكلّ ذلك مستفاد من خلال تراجمهم التي أظهرت شهرتهم، ونوعيتهم، وتنوع معارفهم، ومستوى

١. العقد الثمين ٣ : ٧٨ برقم ٥٨٣ من ترجمة الشيخ شهاب الدين النووي .

٢. الضوء اللامع ٥ : ١٨ من ترجمة عبد الله بن خليل بن فرج الشافعي (ت٨٣٣هـ) .

أنشطتهم بالنسبة للدارسين في حلقاتهم، فالطالب آنذاك قد يكون قارئاً، أو سامعاً على شيخ، مقرئاً ومسمعاً لشيخ آخر في منتدى الحجّ العام، أو في علم آخر فاق شيخه فيه.

وحتى نبرز تألّق الثقافة أيام الحجّ لا بدّ أن نذكر عدداً قليلاً يتناسب وحجم هذا البحث من روّادها الذين شاركوا في إثرائها، ووضعوا لبنة في صرح شموخها، ومن لم نذكرهم لايقلّون شأناً عنهم، بل قد يفوق بعضهم في إثراء هذه الثقافة البعض ممّن ذكرنا، وهؤلاء وأولئك كان لهم دورهم في نموّ ثقافة الحج أيام مواسمه. يمرّ بالخاطر منهم العالم الجليل مقرئ ومحدّث لكم: عبد الله بن عبد الحق بن عبد الله بن عبد الأحد المخزومي المصري،[1] المكنّى بأبي محمد، والملقّب بعفيف الدين الدلاصي،[2] مسموعاته كثيرة، وإسماعاته أكثر، تلا بالروايات بعشرين كتاباً على الكمال، إبراهيم بن أحمد التميمي في سنة ٦٦٤هـ بدمشق، ومسموعاته على مشاهير علماء مكة التي جاور بها جُلّ عمره والتي تزيد على ستين سنة، فيها بثّ معارفه إقراءً، وتحديثاً بدون أجر، تفقه أولاً بمالك، ثمّ بالشافعي، ظلّ في سنواته بمكة وهو في نشاط علمي ملحوظ، فلم يُر إلاّ وهو في مجلس علم، أو طواف، أو عبادة، ولا سيما مواسم الحجّ، واستفاد من فيض معارفه إقراءً وتحديثاً وتفقيهاً خلق كثير من الوافدين، والمجاورين وكان بينهم ابنه محمد، الذي تصدّر بعد والده الإقراء بالحرم، وانتشرت معارفه بين الوافدين إلى بيت الله الكريم، وامتدت حلقاته العلمية من الحرم الشريف إلى الأربطة في مواسم الحجّ إلى أمكنة المشاعر، وسمع منه المشاهير، كالحافظ البرزالي الذي ذكره في تاريخه: وذكر أنّه اجتمع به في عرفة وسمع بقراءاته... وفاته في مستهل صفر بمكة

١. العقدالثمين ٥ : ١٩٦ـ١٩٩ برقم ١٥٦ ؛ التحفة اللطيفة٢ : ٤٩ـ٥٠ برقم ٢٠٢٨، دار الكتب العلمية، بيروت لبنان١٤١٤هـ.

٢. الدلاصي منسوب إلى الدلاص: وهي بفتح أوله وثانيه بكورة بصعيد مصر غرب النيل، معجم البلدان٢ :٤٥٩

سنة٧٢٣هـ .[١]

وظهر الدور الثقافي للحجّ متألقاً حين انضم إليه شعلة من مشاعل نوره في موسم عام ٦٥١هـ، يقول فيها ابن فهد: فيها حجّ الشيخ مجد الدين أبو البركات عبد السلام بن عبد الله بن الخضر بن محمد بن تيمية الحراني،[٢] وزوجته أمّ البدر:[٣] بدرة بنت عمّه الخطيب فخر الدين أبي عبد الله محمد بن الخضر بن محمد بن تيمية، وحدثا في ليلة الأربعاء رابع عشر ذي الحجة بفوائد ابن ماسي،[٤] من آخر جزء الأنصاري،[٥] ورباعيات الغيلانيات،[٦] ورباعيات حمزة الأنصاري، وقرئ على مجد الدين وحده مشيخة أبي البدر الكرخي،[٧] وكان ذلك بحضور الإمام شمس الدين بن سيبي المحدث.

وكان بمكة هذه السنة جمال الدين أبو الفتح نصر الله بن أبي محمد بن إلياس بن عبد الرحمن بن علي بن أحمد الأنصاري الدمشقي، وحدث بها في ثاني شوال من السنة

١. العقدالثمين ٥ : ٦٤ـ٦٥ برقم١٥٦ ؛ إتحاف الورى٣: ١٧٧ .

٢. الحراني نسبة إلى حرّان: وهي مدينة مشهورة من جزيرة أقور، وتقع على طريق الموصل والشام، وسميت بهاران أخي إبراهيم عليه السلام، لأنّه أول من بناها، فعربت إلى حرّان بتشديد الراء. وقيل: إنّها أول مدينة بنيت على الأرض بعد الطوفان. قال المفسرون: إنّها المرادة في قوله تعالى: ﴿إنّي مهاجر إلى ربّي﴾، ياقوت، معجم البلدان٢ : ٣٢٥ـ٣٢٦ .

٣. عن ابن تيميه انظر بن رجب الحنبلي (ت٧٩٥هـ)، الذيل على طبقات الحنابلة، بيروت، دار المعرفة،٢ : ٢٤٦ برقم٣٥٩، الذهبي، العبر في خبر من غبر٥ : ٢١٢، عن زوجته بدرة ؛ المنذري، التكملة لوفيات النقلة ٣ : ١٣٨ برقم ٢٠١٧ ؛ شذرات الذهب٥ : ١٠٢ .

٤. وتسمى فوائد البزار في الحديث، لعبد الله بن إبراهيم بن أيوب بن ماسي ؛ كشف الظنون ٢ :١٢٩٦.

٥. لمحمد بن عبد الله الأنصاري، أو لأبي محمد عبد الباقي الأنصاري، كشف الظنون ١ : ٥٨٦ .

٦. الغيلانيات، فوائد حديثية من رواية أبي طالب محمد بن محمد بن إبراهيم بن غيلان البزار (ت٤٤٠هـ) ؛ كشف الظنون١ : ٥٨٨ ؛ الوافي بالوفيات ١ : ١١٩ برقم ٢٧ .

٧. هو أبو البدر عباد بن الوليد بن خالد الغبري الكرخي نسبة إلى كرخ سامراء، وفاته سنة٢٥٨هـ ؛ إتحاف الورى ٣ : ٧٣ .

بالجزء الأول من فوائد الجصاص، والسادس من فوائد أبي زرعة محمد،[1] وأبي بكر أحمد ابني عبد الله بن أبي دجانة، والأول من فوائد أبي مسلم الكاتب انتقاء ابن فورك.[2]

كان من هؤلاء أيضاً محمد بن محمد أبو القاسم النويري القاهري، وقد أثرى المكتبة الإسلامية بمصنفات كثيرة أهمّها: الغياث في القراءات الثلاثة الزائدة على السبعة منظومة، وشرح القصيدة وحجّ، وجاور بمكة، وأثرى الحياة العلمية بها، وتوفي سنة٨٥٧هـ.[3]

وكان لمنصور بن الحسن بن علي القرشي الكازروني دور بارز أيضاً في نشر معارفه من خلال تفسيره للقران الكريم، وضخامة أنشطته العلمية تدلّ على تفاعله، وحسن درايته وغزارة علمه على بثّ معارفه بين روّاد العلم في هذه المواسم، وأهمّ مصنفاته: لطائف الألطاف في تحقيق التفسير ونقد الكشّاف، وفاته سنة٨٦٠هـ.[4]

ولا يفوتنا في هذه العجالة أن نوضّح جهود الفقهاء والأصوليين في هذه الحقبة الزمنية، والذين كان من أشهرهم: المحب أبو السعادات بن ظهيرة (ت٨٥٤هـ)، ومن أشهر مؤلفاته تنوير الدياجير بمعرفة أحكام المحاجير، والإعلام بما يتعلق بأحكام الختانين من الأحكام، وكلاهما من تأليفه، أيضاً كان منهم: على بن محمد بن إسماعيل البيضاوي (ت٨٨٥هـ).[5]

وقد تألّق في هذه المواسم بمختلف أنشطته العلمية: أبو العباس أحمد بن عبد

---

١. هو محمد بن عبد الله بن عبد الله بن أبي دجانة عمرو بن عبد الله بن صفوان النصري، وفاته قبل سنة٣٦٠هـ؛ تذكرة الحفاظ٣: ١٠٠١ .

٢. ابن فورك، هو أبو بكر أحمد بن موسى بن مردوية بن فورك الإصبهاني؛ الوافي بالوفيات ٨ : ٢١٠ برقم٣٦٣٤؛ شذرات الذهب ٣ : ١٩ .

٣. السخاوي، الضوء اللامع ٩ : ٣١ .

٤. السخاوي، المصدر نفسه١٠ : ١٧٠؛ شذرات الذهب ٧ : ٢٩٧ .

٥. السخاوي، المصدر نفسه١٠ : ٤٨ .

القادر بن أحمد بن محمد بن عبد المعطي الخزرجي الأنصاري (ت٨٦٨هـ) وقد جاور بمكة وأقرأ بها: المختصر الفرعي لابن الحاجب، ومكث بمكة ما يقرب من عام، وهو لا يمل من التذكير، ونشر معارفه بين روّاد العلم في كلّ مكان.[١]

وساهم أيضاً من الفقهاء عمر بن عبدالله السراج الهندي الفافا (ت٨١٥هـ) وقد جاور بمكة ما يقرب من أربعين عاماً، أفاد في أثنائها كثيراً من طلاب العلم، وأطلق عليه الفافا؛ لأنّه كان كثير النطق بالفاء،[٢]

ومنهم أيضاً محمد بن أحمد بن سعيد المقدسي، ثمّ الحلبي، نزيل مكة وقاضي الحنابلة بها، ألّف، ودرّس، وصنّف، ومن جملة تصانيفة: الشافي في الكافي في الفقه، وكشف الغمة لتيسير الخُلْع لهذه الأمة ونحو ذلك من سائر مصنفاته (ت ٨٥٥هـ).[٣]

ومن روّاد هذه الثقافة أيام الحجّ أيضاً الشيخ بهاء الدين السبكي،[٤] الذي قدم صحبة الحاجّ، وجاور بمكة بعد حجّه عام ٧٧٢هـ، مسموعاته على مشاهير العلماء بالقاهرة، ودمشق فضلاً عن أبيه، درّس، وحدّث وأفتى من صغره، وولّي المناصب الرفيعة، من مصنفاته: كتاب عروس الأفراح في شرح تلخيص المفتاح للقاضي جلال الدين القزويني وغيره، وله يد طولى في العلم لم يكتمه في موسم حجّه هذا وفترة مجاورته، فضلاً عن شعره الرائق الذي كشفت عنه الحركة الثقافية في منى، ورائد حلقتها قاضي القضاة زين الدين أبوبكر بن الحسين المراغي الشافعي، ومن طلبتها آنذاك الشيخ الفاسي قراءةً وسماعاً عليه بمنى، وقد أخبر المراغي هذا بأنّه سمع قاضي

١. السخاوي، الضوء اللامع١ : ٣٥١ .

٢. المصدر نفسه ٦ : ٩٨ .

٣. المصدر نفسه ٦ : ٣٠٩ .

٤. هو تمام بن علي بن عبد الكافي بن تمام بن يوسف بن موسى بن تمام بن حامد بن يحيى بن عمر بن عثمان بن علي بن سوار بن سليم بن أسلم الخزرجي، كنيته أبو حامد، ويسمى أيضاً أحمد، وفاته الخميس ٧ من رجب سنة ٧٧٣هـ ؛ العقدالثمين٣ : ٣٨٣ـ٣٨٤ برقم٨٦٠ .

القضاة بهاء الدين السبكي ينشد لنفسه بالحضرة النبوية قائماً مكشوف الرأس قصيدة نبوية، أورد الفاسي بعضاً منها في ثلاث صفحات، أولها:

تيقَّظْ لنفسي عن هداها تولت وبادر ففي التأخير أعظم خشية

ومنها:

وخير نبيٍّ جاء من خير عنـ بخير كتابٍ قد هدى خيرَ أمّة
وأولهم فضلاً ونشراً إذا دعوا وآخرهم بعثاً وأوسط نسبة
لك المعجزات الغُرّ لاحت خوارقاً وباهر آياتٍ عن الحصر جلّت

ومنها :

وبالقمرين النّيرين هديتَنا كتابٌ من الله الكريم وسنّة
وصلَّيت نحو القبلتين تفرداً وكلّ نبي ما له غير قبلة
وعندي يمين لا يمين بأنّ في يمينك وكْفاً كيف ما السحب ضنَّت
لقد نزَّه الرحمنُ ظلّك أن يُرى على الأرض مُلقى فانطوى للمزية.[1]

من مشاعل هذه الثقافة أيضاً شمس الدين محمد بن علي سكر، قدم إلى مكة حاجاً عام ٧٤٩هـ

واستوطنها في نفس هذا العام حتى وفاته بمكة في صفر سنة ٨٠١هـ، مسموعاته كثيرة على مشاهير علماء القاهرة والإسكندرية ودمشق، وأجيز من بعض علماء هذه البلاد، كان معنياً بالحديث والقراءات (انتصب للإقراء بالحرم الشريف عند أسطوانة في محاذاة باب أجياد، وأخذ خطوط من عاصره من أمراء مكة، وقضاتها بالجلوس عندها)، انتفع الحجاج من فيض علمه بعرفات وعظاً وتحديثاً.[2]

١. العقد الثمين٢ : ٣٨٣ ٣٨٦ برقم٨٦٠، ومنه ورد هذا الشعر ؛ الدرر الكامنة ١ : ٢٢٥ ؛ إتحاف الورى ٣ : ٣١٤ .

٢ . العقد الثمين ٢ : ٢٠١ ٢٠٧ برقم٣٢٥ ترجمة طويلة ؛ ابن تغرى بردي، المنهل الصافي والمستوفي

ومـن العلـماء المحدّثين القـراء أيضاً عبد الله بـن خليل بن فرج الشـافعي (ت٨٣٣هـ) حـجّ وجاور بمكـة أعواماً طويلـةً، وخلالها كان قارئاً محدثاً بالمسـجد الحـرام، خاصةً أيام المواسـم التـي غُصّت فيهـا حلقاته العلمية بـروّاد العلم مـن الوافدين، وصنّـف أثناء مدّة مجاورتـه: تحفـة المتهجد وغنيـة المتعبـد، في أول ذي الحجة من عام ٨١١هــ كانت حلقته العلمية بالمسـجد الحـرام زاخرة بروّاد المعرفة سـماعاً عليـه، وحدث بمكة بكتـاب: الذكر المطلـق وهو مـن تأليفه.[1]

ولا يفوتنـا في هـذا المقـام العـالم التقـي أحمـد بـن عـلي بـن عبـد القـادر بـن محمـد بن إبراهيـم بـن محمد بن تميـم بن عبد الصمد، الشـيخ الإمام العـالم البارع، عمـدة المؤرخين، وعـين المحدِّثـين تقي الديـن المقريزي البعلبكي الأصـل،[2] المصري المولد والـدار والوفاة. مولـده بعد عام٧٦٠هــ بسـنوات،[3] ووفاته١٦ من رمضان سـنة٨٤٥هـ، ودفـن في مقبرة الصوفيـة خـارج بـاب النصر مـن القاهـرة، المقريـزي إلى جانب كونـه من أكابـر مؤرخي العـصر المملوكـي، فهـو عـالم محدِّث فقيـه، تفقّـه على مذهـب الحنفية، ثـمّ تحول شـافعياً، وسـمع بمكـة الصحيحين سـنة٧٨٣هـ من العفيـف النشـاوري،[4] ابن سـكر المذكور آنفاً وغيرهمـا وقـد أجازه مشـاهير مكة، ومن سـمع عليهم، وتفقـه وبرع وصنّـف التصانيف المفيـدة النافعـة الجامعـة لكلّ علـم، أجمعت إشـارات أقرانـه على أنّـه كان ضابطـاً مؤرخاً

بعـد الـوافي، ١ :٣٩٥، وهامشـها، تحقيق، أحمـد نجـاتي، ط١، دار الكتـب المصرية،١٣٧٥هـ؛ إتحاف الـورى ٣ : ٢٣٩ .

١. ابن حجر، أنباء الغمر ٣ : ٤٤٦ ؛ السخاوي، الضوء اللامع ٥ : ١٨ .

٢. ألحـارة في بعلبـك، تعرف بحـارة المقـارزة، وأصله من بعلبك، وجـدّه من كبار المحدثـين، تحول ولده إلى القاهـرة، وولي بهـا بعـض الوظائف المتعلقة بالقضـاء، وكتب التوقيـع في ديوان الإنشـاء، وولد له ابنـه تقي الدين هـذا. الضوء اللامـع ١١ : ٢٢٧ .

٣. ذكر السخاوي في كتابه الضوء اللامع ٢ : ٢١، (مولده٧٦٦هـ بالقاهرة) .

٤. موفـق الديـن عـلي بن عبـد الله النشـاوري الزبيدي اليمنـي، (ت٧٩٨هــ) ؛ ابن تغرى بـردي، المنهل الصافي ١ :٣٩٥ وهامشـها .

مفتناً معظماً في الدول، جاور بمكة في سنة ٨٣٩هـ وحدث بكتابه: إمتاع الأسماع بما للنبيّ ﷺ من الحفدة والمتاع في ستة مجلدات، ومصنفاته لا نستطيع حصرها هنا، وكثرة السامعين عليه، والمنتفعين منه خاصة وعامة في مواسم الحج وغيرها لا تتسع لهم هذه السطور.[١]

وقد ساهم في هذا الصدد أيضاً الحافظ بن حجر العسقلاني (ت٨٥٢هـ) من أشهر مؤرخي مصر في وقته بلا منازع، حجّ وجاور سنة٨٠٦هـ، وسمع بمكة ومنى، ثمّ حجّ سنة٨١٥هـ ثمّ حجّ وجاور سنة٨٢٤هـ، وقد حدَّث بكتابه: نخبة الفكر في حجة سنة٨١٥هـ، وأفاد كثيراً من المجاورين والوافدين وحدَّث بالمسلسل سنة٨٢٤هـ وكان في حلقته المشاهير، واستفاد منه خلق كثير في منى مثل:[٢] محمد بن عيسى بن محمد السلامي الطائفي الذي سمع عليه بمنى، ومصنفاته كثيرة منها: الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة وغيره.[٣]

ومن لم يكن له نظير ببلاد الحجاز تحديثاً وتدريساً وإفتاءً هو: محمد بن موسى بن علي، الملقب بجمال الدين، والمكنى بأبي البركات المكي الشافعي، وكان واسع الثقافة قراءة، وسماعاً على مشاهير علماء البلاد في شتّى المعارف والفنون، فقرأ وبرع في الفقه، والأصول، والعربية، والمعاني، والبديع، والأدب وتقدم كثيراً في الحديث لجودة معرفته بالعلل وأسماء المتقدمين، والمتأخرين، والمرويات، والعالي، والنازل، مع الحفظ لكثير من المتون، ولم يكن له في ذلك نظير بالحجاز، حصل معارفه من مشاهير علماء مكة والمدينة ومصر ودمشق وغيرها، وأذن له شيخها مُسند الحجاز أبو بكر بن الحسين

---

١. المنهل الصافي والمستوفي بعد الوافي ١ :٣٩٣٩٤ برقم ٢١٧ ؛ الضوء اللامع ٢ : ٢١ ؛ السيوطي، حسن المحاضرة ١ : ٥٥٧ ؛ شذرات الذهب ٧ : ٢٥٤ .

٢. الضوء اللامع ٨ : ٢٧٦ وفيها ذكر وفاته سنة ٨٤٣هـ .

٣. المصدر نفسه، ٢ : ٣٦ ؛ ابن فهد، معجم الشيخ : ٧٠، تحقيق أحمد الزاهي، مراجعة حمد الجاسر، دار اليمامة، الرياض،١٩٨١م ؛ السيوطي، حسن المحاضرة ١ : ٣٦٣ .

المراغي في الإفتاء والتدريس، وقد سمع من الشيخ تقي الدين الفاسي سنة ٨١٢هـ وهما في طريقهما إلى المدينة عند وداي الفرع،[١] وسمع الفاسي منه أيضاً. وفاته في ذي الحجة سنة ٨٢٣هـ ودفن في المعلاة بمكة. وتأسف الناس والفاسي عليه، وقال: وكنت عظيم الأسف عليه لما بيني وبينه من الصداقة الأكيدة، ولما يفيدني في الحديث وغيره وقلَّ أن اجتمعت به إلاّ وأفادني شيئاً.[٢]

وقد نمت ثقافة الحج، واتسعت معارفه أكثر بمساهمة مؤرخ مكة، وقاضيها ومحيي معالمها، ومجدد مآثرها الشيخ تقي الدين الفاسي المكي المالكي، مترجم أعيان مكة، ولادته بمكة في ليلة الجمعة ٢٠ من ربيع الأول سنة ٧٧٥هـ، ضخامة أنشطته العلمية من مسموعاته وإسماعاته على مشاهير علماء، مكة، والمدينة، والقاهرة، ودمشق وغيرها إلى العديد من الإجازات العلمية التي حصل عليها من علماء هذه البلاد لا تتحملها هذه العجالة، ويكفينا هنا أن نشير في إيجاز إلى بعض مساهمته في نحو هذه الثقافة أخذاً وعطاءً، بدأ بحفظ القرآن الكريم حتى جوَّده، وفي سنة ٧٨٧هـ قرأ الأربعين للنووي وغيرها وعرضها وغيرها بالمدينة النبوية سنة ٧٨٨هـ، وفي هذه السنة انتقل إلى مكة مع أسرته، وقرأ عمدة الأحكام وعرضها في سنة ٧٨٩هـ، ومسموعاته على هذا النحو كثيرة، وأذن له مشاهير العلماء في التدريس والإفتاء عن طريق منحة الإجازة العلمية التي حظي بها من أشهر العلماء في البلاد التي كان يتردّد عليها كثيراً، وأكثر تردّده على القاهرة من مكة، ففي ذي القعدة سنة ٧٨٧هـ كان بالقاهرة لتحصيل معارفه سماعاً على الحافظ نور الدين الهيثمي من كتابه مجمع الزوائد ومنبع الفوائد وغيرها، وفي شوال من السنة نفسها ولي قضاء المالكية

١. الفرع، قرية من نواحي الرئده بينها وبين المدينة ثمانية برد، على طريق مكة. معجم البلدان ٤ : ٢٥٢ .

٢. العقد الثمين ٢ : ٣٦٤ ٣٧١ برقم ٤٦٥ ؛ ابن حجر، أنباء الغمر ٣ : ٢٣٤ ؛ الضوء اللامع ١٠ : ٥٦ برقم ٢٠٠ ؛ شذرات الذهب ٧ : ١٦١ .

بمكـة مـن قبل الملك النـاصر فرج بن الملـك الظاهر برقـوق، وتوجه مع ركـب الحجاجّ المصريـين إلى مكـة، فوصلهـا في ذي القعـدة مـن السـنة نفسـها. وفي أوائـل ذي الحجـة قـرئ توقيعـه بالولاية في المسـجد الحرام خلف مقـام الحنفي بعد صـلاة العصر بحضرة أمـير الحـجّ المـصري الأمير كـزل العجمي، وغيره مـن أعيان الحجـاجّ وأهـل مكة. وفي سـنة ٨١٢هــ زار المدينـة النبويّـة وحـضر بهـا مجلس الإمـام أبي عبـد الله محمـد بن أحمد الوانوغـي في الأصـول، والفقـه، وغير ذلـك، وأذن لـه الوانوغي في الإفتـاء والتدريس، وكتـب لـه خطه بذلـك في منـى في أيامهـا سـنة ٨١٣هـ، هـذه صيغـة الإجـازة العلمية آنـذاك، ومـا كتبـه الوانوغـي في إجازتـه للمذكـور، وبعد أن طلـب اجتماعـه بعلماء مكة قـال: كان ممّـن اجتمعت بـه، وذاكرته وباحثته مراراً عديدة في مسـائل كثيرة من مسـائل الفقـه وغوامضـه، ومـا يتعلق بهـما، وتكررت أسـئلته عن ذلك كلّـه ومباحثـه فيها، مرة بعـد أخرى: السـيد الفقيه الفاضل الأعـدل الأكمل الجامع للصفات الفاضلة الحسـيب الأصيـل القاضي تقي الدين محمد بن الشـيخ الحسـيب الأصيل شـهاب الديـن أحمد بن عـلي الفـاسي، نفـع الله بفوائده وعلومـه الجليلة.

وقـد ورد علينـا بالمدينـة الشريفـة، وحـضر معنـا درس الفقـه والأصول، وأبـدى فيه مـن فوائـده ومباحثه الجليلـة بعلمه وفضله عـلى طريقة أهـل الفنون والمباحـث، فرأيته في ذلـك كلّـه أهـلاً للتدريـس، والفتـوى، والحكـم، وإفـادة الطالبين، مـع ما جبـل عليه من حسـن الفهم، وحسـن الإيـراد، وسـعة البـال في البحـث والمراجعة فيه.

فأوجـب ذلـك كلّـه، الإذن لـه في التدريـس والفتـوى، وإفـادة الطلبـة، وحثّـه عـلى الاشـتغال بذلـك كلّـه، والملازمـة لـه، لينتفع بـه النـاس عموماً، وأهـل بلـده خصوصاً، فـإنّي لم أرَ مـن فقهـاء المالكيـة بالحجاز كلّه مـن يقاربه في جميع مـا ذكرناه نفـع الله به ولا في اتصافـه في العلـم ولا في الفهـم عـن الأئمـة. انتهـى بنصّـه باختصـار من أولـه وآخره.

ومـن جملـة أنشـطته أنّـه درَّس للمالكيـة في المدرسـة السـلطانية الغياثيـة البنجالية التي

تقع بالجانب اليماني من المسجد الحرام، ودرَّس قبلها في المسجد الحرام، وأفتى كثيراً بداية من عام ٨٠٨هـ. شيوخه كثيرون نحو خمسمائة شيخ بالسماع والإجازة، ومن تصانيفة: العقد الثمين في تاريخ البلد الأمين، وشفاء الغرام بأخبار البلدالحرام، والمناسك الكبرى، والمناسك الوسطى، والمناسك الصغرى، وقد أثنى على الشيخ تقي الدين الفاسي العديد من العلماء، فصاغوا تصانيفه في شعر أورد الفاسي جملة منه في نهاية ترجمته بكتابه العقد الثمين، وفاته في ٣ من شوال سنة ٨٣٢هـ.[١]

هذا، وقد أورد الفاسي صورة إجازته العلمية ضمن ترجمة أستاذه الوانوغي المجيز، والوانوغي هو محمد ابن أحمد بن عثمان بن عمر التونسي، المكنى بأبي عبد الله، والمعروف بالوانوغي. نزيل الحرمين الشريفين، ولد سنة٧٥٩هـ بتونس ونشأ بها، وسمع بها من مسندها ومقرئها: أبي الحسن بن أبي العباس البطرني في خاتمة أصحاب الأستاذ أبي جعفر بن الزبير بالإجازة، وله منه إجازة بكل ما يرويه، أخذ العلم من مشاهير علماء تونس، كالتفسير، والفقه، والمنطق، والأصليين وعلوم الحساب، والهندسة والنحو، وكان إذا رأى شيئاً وعاه، وقرّره وإن لم يسبق له به عناية، وأعانه على ذلك شدة ذكائه وسرعة فهمه. انتقد أساطين العلم قبله، وله في هذا الصدد تأليف على قواعد شيخ الإسلام عزّ الدين بن عبد السلام الشافعي، وذكر فيه أنّه زاد فيما أصله فوائد كثيرة، وردَّ عليه كثيراً مما قاله، ذكر الفاسي ذلك قائلاً: وأوقفني على موضع من ذلك يتعلّق بفضل مكة والمدينة. فرأيت فيه ما ينتقد في مواضيع، منه ولا أبعد أن يكون فيه كثير من هذا المعنى، وله سؤالات في فنون العلم تشهد بفضله، وهي عشرون سؤالاً بعثها من المدينة يتعرف جواب علماء الديار المصرية عنها. ذكر الفاسي: فتصدى للجواب عنها

١. العقد الثمين ١ : ٣٣١ـ٣٦٣ برقم٣٨ ؛ ابن حجر، أنباء الغمر٣ : ٤٢٩ ؛ الضوء اللامع ٧ : ١٨ ؛ شذرات الذهب ٧ : ١٩٩ ؛ مخلوف، شجرة النور الزكية : ٢٥٣ .

شيخنا أي شيخ الفاسي قاضي القضاة شيخ الإسلام جلال الدين بن... شيخ الإسلام سراج الدين البلقيني،[1] الذي ردَّ عليه كثيراً مما قاله فيها، ووصل ذلك للمذكور فذكر لي-الفاسي أنّه ردَّ ما ذكره شيخ الإسلام.[2]

وفتاوى الوانوغي كثيرة متفرقة في مصر والمدينة ومكة وغيرها، فأول قدومه إلى مكة كان سنة ٨٠٠هـ حجّ فيها، ورجع إلى مصر، ثمّ عاد قبيل رمضان من التي بعدها إلى مكة، فجاور وحجّ فيها، ومنها إلى المدينة، ومنها إلى مصر سنة ٨١٢هـ، وحجّ في هذه السنة، وحضر إلى المدينة واستوطنها، ثمّ إلى مكة بأهله سنة ٨١٥هـ، وفي هذه الفترة لم يكتم ما أنزل الله عليه من البيّنات والهدى بل صار يذيع معارفه في أوساط الحجيج والوافدين في مواسم الحج وغيرها حتى وفاته بمكة في١٩ من ربيع الآخر سنة٨١٩هـ.[3]

ولا يفوتنا في هذا المقام أن نذكر ما أكدت به الحركة الثقافية في مكة والمدينة على يد قاضي مكة وخطيبها، وعالمها الشهير: محمد بن أحمد بن عبد العزيز بن القاسم الهاشمي، العقيلي، ولادته بمكة سنة ٧٢٢هـ، ومسموعاته لكثير من فنون العلم على مشاهير علماء مكة والمدينة ودمشق، أكدت معرفته، وسعة أفقه في تحصيله من العلم على أوفر نصيب رقى به أعلى الذروة، واشتهر بذلك ذكره، وبُعد صيته، صار المنظور إليه في بلده، بل بالحجاز كلّه، ودرَّس، وأفتى، وناظر، وحدَّث. ولي قضاء مكة سنة٧٦٣هـ في رمضان هذه السنة، واستمر حتى وفاته، هذا فضلاً عن ولايته خطابة الحرم ونظره. وأنشطته العلمية وافرة، فقد درَّس في مدارس ملوك اليمن الثلاثة بمكة

---

١. هو عمر بن رسلان بن نصير بن صالح البلقيني، ولد سنة ٧٢٤هـ وتوفي سنة ٨٠٥هـ. ابن تغرى بردي، المنهل الصافي والمستوفي بعد الوافي ١ : ٣٩٥ .

٢. العقد الثمين ١ : ٣٠٨ ٣١٠ .

٣. للمزيد من التفاصيل راجع ترجمته في العقد الثمين ١ : ٣٠٨ ٣١٧ برقم ٣٢ ، وانظر فيها المناظرات لشتى مصنفات أساطين العلم قبله، ابن حجر، أنباء الغمر ٣ : ١١٤ ؛ الضوء اللامع ٧ : ٣ برقم ٢٥ ؛ شذرت الذهب ٧ : ١٣٨ .

وهي: المنصورية،[1] المجاهدية،[2] الأفضلية،[3] وهو أول من درَّس في الأخيرة، وكان يسكن بها، ولي تدريس درس بشير الجمدار،[4] مشافهة منه، ومكان هذا الدرس بالمسجد الحرام، وقد أغفلت المصادر نوعية ما يدرس فقهاً، أو حديثاً، أو تفسيراً عموماً من تولوا التدريس فيه كانت أنشطتهم تدور بين مدارسة الحديث والفقه، وهذا مدرك من خلال من عملوا بدراسته كمحبّ الدين أحمد بن محمد النويري (ت٧٩٩هـ)،[5]

---

١. وتسمّى هذه المدرسة أيضاً المظفرية نسبة إلى ولد صاحب اليمن المظفر يوسف بن علي؛ لأنّه أقام فيها درس حديث، انظر ترجمته في الخزرجي، العقود اللؤلؤية ١ : ٤٤ـ٨٨ ؛ العقد الثمين ٧ : ٨٨، وفاته سنة ٦٩٤هـ. وتسمّى بالنورية نسبة إلى نورالدين لقب الملك المنصور عمر بن علي بن رسول، وهو الذي قام بعمارة هذه المدرسة سنة ٦٤١هـ، وهي بالجانب الغربي من المسجد الحرام، وهي موقوفة على فقهاء الشافعية، وقام بهذه العمارة الأمير فخر الدين الشلاح ؛ العقد الثمين ٨ : ١٧٥، وعن ترجمة الملك المنصور، العقود اللؤلؤية في أخبار الدولة الرسولية ١ : ٤٤ـ٨٨ ؛ العقد الثمين ٦ : ٣٣٩، وفاته ٦٤٩هـ .

٢. المدرسة المجاهدية، عمّرها الملك المجاهد علي بن داود بن يوسف صاحب اليمن سنة ٧٣٩هـ، وهي بالجانب اليماني من المسجد الحرام، وأوقفها في ذي العقدة من هذه السنة على الشافعية. العقد الثمين ٦ : ١٥٨ و ١ : ١١٨ ؛ شفاء الغرام ١ : ٣٢٨ .

٣. المدرسة الأفضلية وهي نسبة إلى الملك الأفضل العباسي بن الملك المجاهد علي بن الملك المؤيد داود بن الملك المظفر داود بن الملك المنصور يوسف، وبناها جوهر بن عبد الله، المعروف بالرضوان، (ت٧٥٥هـ) وبعد مجاورته لمكة بنى هذه المدرسة ولم يفدنا الفاسي بتاريخ بنائها غير ما أورده في عشر الخمسين وسبعمائة. عن المدرسة انظر شفاء الغرام ١ : ٣٢٨ ؛ العقد الثمين ١ : ١١٨ ؛ وعن ترجمة هذا الملك، الخزرجي، العقود اللؤلؤية ٢ : ١٢٧١٦٣ ؛ وعن جوهر هذا، العقد الثمين ٢ : ٤٤٨ .

٤. العقد الثمين ١ : ٣٠٠ـ٣٠٧ برقم ٢٩، ٣ : ٥٢ برقم ٥٦٢ ؛ المقريزي، السلوك ٣ : ٥٢٢ـ٥٢٧ ق٢ ؛ ابن حجر، الدرر الكامنة ١ : ١٥٣ برقم ٤٠٥ ؛ إتحاف الورى ٢ : ٣٤٥ .

٥. نجم الدين محمد بن محمد بن محب الدين أحمد الطبري، قاضي مكة ومفتيها، كان أديباً ناظماً ناثراً، (ت٧٣٠هـ) ؛ ابن تغرى بردي، المنهل الصافي ١ : ٣٢٥ وهامشها، ضمن ترجمة جدّه المحب الطبري رقم ١٨٤ .

وعزّ الدين محمد بن أحمد النويري (ت٨٢٠هـ)،[1] وهما وغيرهما كانوا من أتباع المذهب الشافعي، وأنشطتهم كانت ملحوظة في عملهم بنشر الحديث وفضلاً عن ولاية كمال الدين أبي الفضل النويري بدرس بشير، فقد درس الفقه للملك الأشرف شعبان صاحب مصر، وبذلك جمع هذه الوظائف ولم تكن لأحد من قبله من قضاة مكة، وبعضها لم يكن إلاّ في زمنه، ذكره المؤرخون كثيراً بسعة يده الطولى في فنون من العلوم مع الذكاء المفرط، والفصاحة والإجادة في التدريس، والإفتاء والخطبة، ورجاحة عقله عند عامة الناس وخاصتهم، أضف إلى ذلك كثرة تواضعه، ومروءته مع الفقراء والأعيان الواردين إلى مكة، وتوفي أبو الفضل النويري الثلاثاء ١٣ من رجب سنة٧٨٦هـ).[2]

وأشرقت ثقافة الحجّ بنور ربّها حيث انضم إلى لوائها رائد من روّاد نهضتها زاد من رصيدها واسترشدت بشتى معارفه وتباين علومه تصنيفاً، وإقراءً، وإسماعاً، يعرفه أهل الحجاز لمجاورته للحرمين الشريفين، أشار إليه من أثنى عليه من أقرانه بأنّه الإمام أبو السيادة عفيف الدين، عبد الله بن أسعد بن علي ابن سليمان اليافعي اليمني، نزيل مكة، ولادته سنة ٦٩٨هـ وحجّ سنة ٧١٢هـ، وكان عارفاً بالفقه، والأصول، والعربية، والفرائض، والحساب، وغير ذلك من فنون العلم، سمع على مشاهير علماء مكة، فقرأ الكتب الستة على الشيخ رضي الدين الطبري خلاشين سُنن ابن ماجة وغيرها، وسمع على القاضي نجم الدين الطبري،[3] مسند الشافعي، وفضائل القران لأبي عبيد،

---

١. هو لأبي إسحاق إبراهيم بن علي الشيرازي، الفقيه الشافعي المشهور، فرغ من تأليفة سنة ٤٥٣ هـ، وتوفي سنة ٤٧٦ هـ، ابن تغرى بردي، نفس المصدر والجزء والصفحة هامش ١٠ .

٢. ذكر محقق الفاسي فؤاد سيد في العقد الثمين ٥ : ١٠٥، أنّ عنوانه: مرهم العلل المعضلة في دفع الشبه و الردِّ على المعتزلة بالبراهين والأدلة المفصلة، مختوم بعقيدة أهل السنة المفضلة، طبع الكتاب بالهند سنة ١٩١٠م .

٣. هو كتاب مشهور عنوانه: مرأة الجنان وعبرة اليقظان في معرفة حوادث الزمان، مطبوع في أربعة مجلدات .

وغـيره، وبحـث عليه الحاوي الصغـير في الفقه، والتنبيـه.[1] وقال الفـاسي: وكان يقول أي نجـم الديـن الطـبري في حال قـراءتي للحاوي: اسـتفدت معـك أكثر مما اسـتفدت معي، قـال: ويقـول لي: قد أقـرأت، أو قـرأت هذا الكتاب مـراراً ما فهمتـه مثل هذه المرة، ولمّـا فرغـت مـن قراءاته، قـال في جماعة حاضرين: اشـهدوا عـليَّ أنّه شـيخي فيه...

مصنفاتـه كثـيرة في فنـون العلـم: دينيـة، وعربيـة، وعقليـة، ذكر الفـاسي وغـيره أنّها: تشـتمل عـلى قريب عشريـن علماً، منهـا: المرهـم،[2] وكتـاب في التاريخ، وكتـاب في أخيار الصالحـين يسـمّى روض الرياحـين، وغـير ذلـك، وتفاعـل اليافعـي بمعارفـه ومصنفاته مـع جهابذة العلـماء أيام الحـجّ في مكة وأمكنة المشـاعر. ومناظراته مشـهورة مع أسـاطين العلـم والمعرفـة، حكـى الفـاسي كثـيراً منهـا، مـا أورده عن: القـاضي شـهاب الدين أحمد بـن ظهيرة يحضر مجلسـه لسـماع الحديـث، فانجرَّ الـكلام إلى مسـألة من مسـائل التمتع في الحـجّ، فاختلـف فيهـا رأيـه ورأى الشـيخ اليافعـي... وغيرهـا أثنـى عليه غـير واحد من مشـاهير العلـماء، وأفـادوا أنّه: إمام عـالم مُتفنِّن يُسترشـد بعلومه ويُقتدى، وعَلَماً يُسـتضاء بنـوره ويُهتـدى، وأنّـه إمام علمـه يُقتبس، وبركتـه تُلتمـس، كان فريداً في العلـم والعمل، مصروفـاً إليـه وجه الأمـل، فضيل مكـة وفاضلها، وعـالم الأباطـح وعاملها، تـردد عشر سـنوات بـين الحرمـين الشريفين متألقاً في سـماء هـذه الثقافة، ومـع هذه الأسـفار وغيرها في سـائر الأقطـار لم تفتـه حجّة في هـذه السـنين. وفاته ليلة الأحـد ٢٠ من جمـادى الآخرة سـنة٧٦٨هـ بمكة، ودفـن بالمعلاة.

سـاهم أيضـاً شـيخ اليافعـي السـابق محمد بـن محمد بـن أحمد الطبري بسـائر أنشـطته العلميـة سـماعاً وتحديثـاً وتصنيفاً، ومناظرتـه من خلال حلقاتـه العلمية في مواسـم الحج حاميـة حـادة بـين مشـاهير علـماء العـالم الإسـلامي، وترجمتـه مشـحونة بهـذه المناظرات

١. العقـد الثمـين ٥ : ١٠٤ـ١١٥ و٢ : ٢٧١ـ٢٧٦ برقـم ١٤٨٦ و٣٨٥ ؛ الـدرر الكامنـة ٢ : ٣٥٢ برقـم ٢١٢٠ ؛ ابـن تغـرى بـردي، المنهـل الصـافي ١ : ٣٢٥ ؛ إتحاف الـورى ٣ : ١٩٣ .

٢. إتحاف الورى : ٣٠٧ .

ذكرهـا يطـول، ولكنّهـا بشـكل عام أثـرت الـدور الثقـافي في مكـة، وأمكنة الحـجّ. وفاته في٢ مـن جمادى الآخـرة سـنة ٧٣٠هـ بمكة.

وممّـا سـبق يتأكـد لنا أنّ مواسـم الحـجّ في بلاد الحجاز قد وسـعت علماءهـا من مختلف البـلاد الإسـلامية، فمكـة كانـت تمثّـل المنتـدى العـام لجموعهـم، والمدينـة بهـا قبر سـيد المرسـلينﷺ، وكلّ منهما بلا شـكّ كانت كجذب لمختلـف العلماء، وزاد رصيدها سـنوياً مـن العلـماء الذين حجّـوا، وفضلـوا المجـاورة للحرمـين لذلك قصدهمـا مئـات العلماء، وقلّـما خـلا عـام من عـالم شـهير بالحرمين يأخـذ عنه شـباب الأمة وشـيوخها مـن راغبي العلـم في هـذه البـلاد، أو القادمـين إليهـا وهـؤلاء بعـد مناسـكهم كان يعـود أكثرهم إلى بـلاده هانئـاً بـما حصله من معارف وخـبرات قلّما توفّـرت في بلادهـم، أو ضمتها جوانب حضارتهـم وكثـيراً مـا كانت تعايشـهم هـذه الذكـرى في بلادهم، فيعـاود أغلبهـم الكرَّة مـرة، بـل ومـرات ومـرات لمضاعفـة ثوابهـم في أرض أنعم الله عليهـا بمضاعفـة أجر من أحسـن عمـلاً، بينـما يطيب لبعضهـم بعد حجّـه البقاء مجـاوراً بالحرمـين هانئـاً بأنعم الله، بـل فضـل بعضهـم عـدم العـودة، واسـتمر في مجاورتـه بمكـة، أو المدينـة، أو همـا معـاً، وشـكل عـلى مرّ العصور نسـيجهما، وقد سـاعد هـؤلاء وأولئك بشـكل أو بآخـر في إثراء ثقافـة الحـجّ وزادوهـا ازدهاراً.

***